بصائر المعرفة القرآنية
قرآن يتلى لإنسانية به ترقى

مقاصد القرآن الكريم ومحاوره العلمية الكلية

من كتاب (الأساس والتنوير في أصول التفسير)

أ.د. عبد السلام مقبل المجيدي
أستاذ التفسير وعلوم القرآن والدراسات القرآنية

القسم الثالث: علوم القرآن التي تؤدي إلى فهم الخطاب القرآني

الأصل في كلام الله جل في علاه البيانُ والوضوح؛ فالله -تعالى ذكره- وصفَ كلامه بالإبانة في عشرات الآيات القرآنية كقوله تعالى مجده: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [يوسف: ١، ٢]، لكنك تلمس صعوبة عند بعض الناس في فهم القرآن المجيد على الرغم من هذه الإبانة، فلماذا؟

أجبنا على ذلك عند ذكر حقيقة: "احتياج القرآن للتفسير سببه كمال القرآن ونقص الإنسان".

ولكنك قد تسأل: ما القضايا التي تجعل فهم المراد من (الكلام الإلهي القرآني) صعبًا على الإنسان؟

يمكن أن نحصر أسباب صعوبة فهمِ المراد من الكلام في الآتي:

السبب الأول: عدم معرفة المحاور الكلية التي يدور حولها الكلام، أو المقاصد الغائية منه، فمثال ذلك: كالطبيب الذي ينظر في القيام بعملية لعضو محدد إلى ذلك العضو دون أن يجري تقويمًا كليًّا لحالة الإنسان الذي ستُجرى له العملية، ولا إلى الهدف من العملية، ولا إلى ارتباط ذلك العضو ببقية الأعضاء.. هل يمكنه ذلك من الحكم الدقيق أو الأداء القويم؟

السبب الثاني: استعمال لفظةٍ غريبةٍ نسبيًا؛ وتزداد غرابتها كلما بعدت الأجيال عن العربية، لذا وضع العلماء علمَ غريب القرآن.

السبب الثالث: القصور في معرفة حقيقة الناسخ والمنسوخ، والمصطلحات المستعملة في هذا الباب، فلا بد من معرفة علم النسخ في القرآن الكريم.

السبب الرابع: الغفلة عن أسباب النزول (السياق التاريخي للآيات)، ومثله الغفلة عن (السياق الموضعي للآيات).

السبب الخامس: استشكال أمرٍ في الآية؛ إما لعدم الإلمام بوجوه الخطاب البلاغية التي يستعملها العرب، كوجود حذف، أو إبدال، أو التفات من أسلوب إلى أسلوب، أو تقديم ما حقه التأخير، والعكس، أو استشكال التراكيب الكلامية لسببٍ من الأسباب، كانتشار الضمائر، أو تعدد المراد من اللفظة الواحدة، أو لوجود الإيجاز، أو التكرار والإطناب، وعدم إدراك الحكمة منه، أو استعمال الكناية والتعريض، والمتشابه والمجاز العقلي، فلا بد من معرفة فن التوجيه، ومعرفة القواعد التفسيرية الخاصة بدلالات الألفاظ اللغوية.

السبب السادس: قد تكون الصعوبة راجعةً إلى عدم التمييز بين ما يحتمل معنى، أو ما يحتمل معانيَ متعددةً، أي إلى عدم التمييز بين المحكم والمتشابه، ويدخل في هذا الجمع بين النصوص المتعددة.

هذه أهم الأسباب التي تصعب على القارئ أو المستمع فهمَ المراد من الكلام عمومًا، ومن الكلام الإلهي خصوصًا، وقد آن لنا هنا نتكلم عن علوم القرآن التي تذلل الكلام، وتهيئ العقل الإنساني ليكون أقربِ إلى فهم المراد من الخطاب القرآني الموجه إلى البشرية[١].

وقد حصر الراغب الأصفهاني ﷺ الآفات التي تمنع المخاطَب من فهم مراد المخاطِب في ثلاث آفات:

الأولى: راجعة إلى الخطاب إما من جهة اللفظ أو من جهة المعنى.

والثانية: راجعة إلى المخاطب وذلك لضعف تصوره لما قصد الإنباء عنه، أو قصور عبارته عن تصوير ما قصد الإنباء عنه وخطاب الله ﷻ منزه عنها.

والثالثة: راجعة إلى المخاطب، وذلك إما لبلادة فهمه عن تصور أمثال ذلك من المخاطبة، وإما لشغل خاطره بغيره وذلك -وإن كان موجودًا في بعض المخاطبين بالقرآن- فغير جائز أن يشمل كافة المخاطبين إذ من المستبعد أن يكون الناس قاطبة لا يفهمونه[٢].

فلنفصل ما يتعلق بها في الأصول الآتية:

---

(١) انظر: الفوز الكبير مع شرحه (ص: ١٥٥) فقد أشار إلى بعضٍ مما ذكر هنا بأسلوب آخر.

(٢) انظر: مقدمة تفسير الراغب الأصفهاني (ص: ٣٩٨).

الأصل الأول: مقاصد القرآن الكريم، ومحاوره العلمية الكلية

ويندرج تحته هذه المباحث:

المبحث الأول: مقاصد القرآن عند بعض العلماء.

المبحث الثاني: المقاصد الغائية لتنزيل القرآن الكريم.

المبحث الثالث: أهم الكتب التي تكلمت عن المقاصد القرآنية.

المبحث الرابع: بين تدبر القرآن المجيد، ومقاصده الكلية والجزئية، وأنواره الهادية في الحياة، وبين حُجُبِ النقل التاريخي.

المبحث الأول: مقاصد القرآن عند بعض العلماء

مما يسهل فهم القرآن الكريم أن نعرف المقاصد والمحاورَ الكلية التي يدور حولها:

فقد اجتهد علماؤنا في تحديد المحاور الكلية التي يدور حولها القرآن الكريم، ولأن ذلك يقوم على التدبر فقد فُتِح لكلٍّ منهم وجهةٌ هو موليها ومولاها، ومن نماذج ذلك:

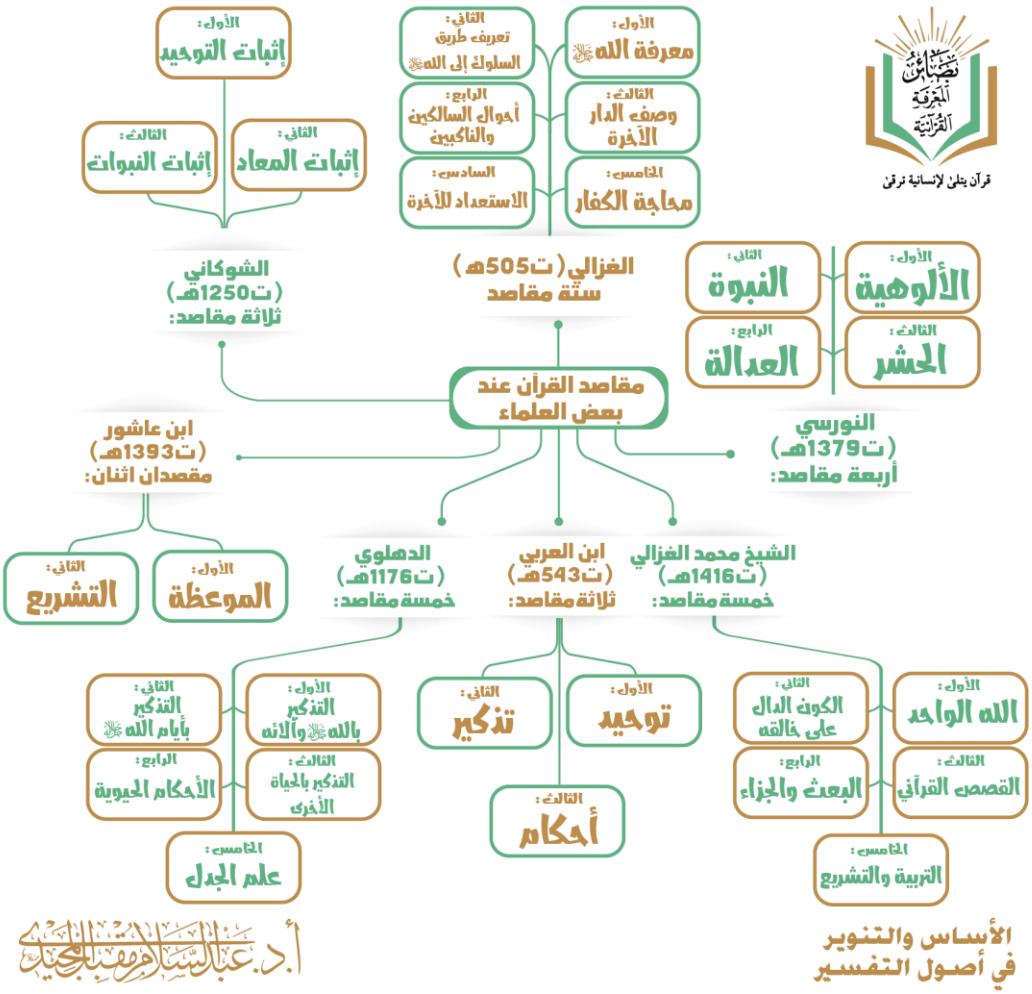

أولاً: ذهب الغزالي (ت٥٠٥هـ) ﵀ إلى أن القرآن يدور حول ستة مقاصد[(١)]:

المقصد الأول: في تعريف المدعو إليه، وهو شرح معرفة الله تعالى[(١)].

---

(١) عند التدريس المنهجي (الأكاديمي) يطلب من الطلاب ضرب أمثلة على كل فقرة من آيات القرآن الكريم.

المقصد الثاني: في تعريف طريق السلوك إلى الله تعالى[٢].

المقصد الثالث: في تعريف الحال عند ميعاد الوصال[٣]، وهو يعني وصف الدار الآخرة.

المقصد الرابع: في أحوال السالكين والناكبين[٤].

المقصد الخامس: في محاجة الكفار ومجادلتهم، وإيضاح مخازيهم بالبرهان الواضح، وكشف تخاييلهم وأباطيلهم[٥].

المقصد السادس: في تعريف عمارة منازل الطريق، وكيفية التأهب للزاد، والاستعداد بإعداد السلاح الذي يدفع سُراقَ المنازل وقُطَّاعها.

وبيانه أن الدنيا منزل من منازل السائرين إلى الله تعالى والبدن مركب، فمن ذَهِل عن تدبير المنزل والمركب لم يتم سفره، **ولا يتم ذلك حتى يبقى بدنه سالمًا "الحفاظ على الجسد الإنساني"، ونسله دائمًا "الحفاظ على النسل الإنساني"**، ويتم كلاهما بأسباب الحفظ لوجودهما، وأسباب الدفع لمفسداتهما ومهلكاتهما، وأما أسباب الحفظ لوجودهما فالأكل والشرب، وذُكِر فيه قوانينُ البدن والمناكحة، والحلال والحرام، والاختصاص بالأموال، وأسبابِ الدفع لمفسدات ذلك، وعليه ذكرَ الغزالي ﷺ القانون الجنائي والحدود حفاظًا على الحياة[٦].

ولا يشكل على هذا ما ذكره الغزالي ﷺ بعد في موضع آخر من جواهره حينما قال: "وارجع إلى الأقسام الثلاثة التي ذكرناها في مهمَّات القرآن، إذْ هي: معرفة الله تعالى، ومعرفةُ الآخرة، ومعرفةُ الصراط المستقيم، فهذه المعارف الثلاثة هي المهمة والباقي تَوابع"[٧] إذ الفرق بين المقاصد وما أطلق عليه معارف.

ثانيًا: وأما تلميذه ابن العربي (ت٥٤٣هـ) ﷺ، فقد سمى مقاصد العلوم التي يحويها القرآن (أُمَّ علوم القرآن)، وهي ثلاثة أقسام: «توحيد، وتذكير، وأحكام»[٨]، وقد اختصر هذه الثلاثة الطاهرُ بن عاشور ﷺ في أمرين: موعظة وتشريع.

فقسم التوحيد يدخل فيه معرفة المخلوقات بحقائقها، ومعرفة الخالق بأسمائه وصفاته وأفعاله، ويدخل في علم التذكير الوعدُ والوعيد، والجنة والنار، والحشر، وتصفية الباطن والظاهر عن أخلاط المعاصي.

---

(١) جواهر القرآن (ص: ٢٥).

(٢) جواهر القرآن (ص: ٢٨).

(٣) جواهر القرآن (ص:٣٠).

(٤) جواهر القرآن (ص: ٣١).

(٥) جواهر القرآن (ص: ٣٢).

(٦) انظر: جواهر القرآن (ص:٣٢).

(٧) انظر: جواهر القرآن (ص: ٧٨).

(٨) قانون التأويل (ص:٥٤٠).

ويدخل في الأحكام: التكليفُ كله من العمل في قسم النافع والضار، وحظ الأمر والنهى والندب[١]، ثم مثل له فالأول: كقوله ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [البقرة:١٦٢]، والثاني: كقوله ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات:٥٥]، والثالث: كقوله ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم﴾ [المائدة:٤٩]"، وبين أن آيات القرآن قد ترجع إلى آيتين كقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ...﴾ [الطلاق:١٢]، وقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦][٢]، وذكر أنها تتفرع لتكون خمسين علمًا وأربعمائة وسبعة آلاف علم وسبعين ألف علم على عدد كلم القرآن مضروبة في أربعة؛ إذ لكل كلمة ظاهر وباطن وحد ومطلع... وهذا مطلق دون اعتبار تركيبه وما بينها من روابط على الاستيفاء في ذلك كله، وهذا مما لا يُحصَى ولا يعلمه إلا الله ﷻ[٣].

وقد سبق أن ذكرنا معنى هذه المصطلحات: "ظاهر وباطن، وحد ومطلع" ونفينا تفسير الباطنية.

ثالثًا: وذهب الدهلوي (١١٧٦هـ) ﵀ إلى أن العلوم التي اشتمل عليها القرآن خمسة:

الأول: علم التذكير بالله ﷻ وآلائه: وهنا تدخل كلمات الله، وعلى رأسها القرآن الكريم، وتدخل النبوات. وقَلِّب الطرفَ في القرآن الكريم تجده يُهَيِّجُ الإنسان، ويستثيرُ معرفته لتعلم أنه يدور حول التذكير بالله ﷻ: الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، اهدنا الصراط المستقيم، الم ذلك الكتاب لا ريب فيه...وهكذا.

الثاني: علم التذكير بأيام الله ﷻ.

الثالث: علم التذكير بالحياة الأخرى ابتداء من مقدماتها وأول ذلك الموت.

الرابع: علم الأحكام الحيوية: وهي التي تهم المرء في عباداته ومعاملاته وأخلاقه.

الخامس: علم الجدل وفن الحوار مع الفرق المخالفة: ليأتي مع التصفية والتحلية التخليةُ والتنقيةُ[٤] كقوله تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾[الفاتحة:٧] حيث بين الله ﷻ طريق المنعم عليهم، وذكر الذين أعرضوا عن الحق استكبارً واتباعًا للأهواء عن علم وهم المغضوب عليهم، أو عن إعراض عن طلب العلم وهم الضالون، وكل من الفرقتين لا يصغون للحق.

هذه العلوم هي التي تحوي الحياة وبها كان القرآن منهاجَ حياة.

رابعًا: وذهب الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ) ﵀ إلى أن القرآن الكريم اشتمل على الكثير الطيب من مصالح المعاش والمعاد، وأحاط بمنافع الدنيا والدين ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾

---

(١) قانون التأويل (ص: ٥٤٢)، البرهان في علوم القرآن (١٧/١).

(٢) انظر: قانون التأويل (ص: ٥٤٢).

(٣) قانون التأويل (ص:٥٤٠).

(٤) الفوز الكبير (ص: ١٩) بتصرف في الترتيب.

[الأنعام: ٣٨]، ويقول ﷻ: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢]، وأما مقاصد القرآن الكريم التي يكررها، فهي ثلاثة مقاصد:

المقصد الأول: إثبات التوحيد، والثاني: إثبات المعاد، والثالث: إثبات النبوات[١].

خامسًا: ذهب بديع الزمان سعيد النورسي (ت١٣٧٩هـ) رحمه الله:

إلى أنها تدور حول (الألوهية، والنبوة، والحشر، والعدالة) بينما هي عند الرازي رحمه الله كما ذكر النورسي رحمه الله ، ولكن الرازي رحمه الله استخدم (القدر) بدل العدالة.

سادسًا: وأما الطاهر بن عاشور (ت١٣٩٣هـ) رحمه الله فيرى أن مقاصدَ القرآن الكريم مقصدان اثنان: هما الموعظة، والتشريع[٢]، ولو أضاف التوحيد لكان جديرًا أن يُفرد ويستقل، ولأن هذا إيجاز مخل، فقد وجدنا الطاهر رحمه الله توسع في ذكر المقاصد في مقدمة تفسيره فأوصلها إلى ثمانية.

سابعًا: وذهب الشيخ مُحَمَّد الغزالي (ت١٤١٦هـ) رحمه الله إلى أن القرآن الكريم يدور حول محاور خمسة:

الله الواحد، والكون الدال على خالقه، والقصص القرآني، والبعث والجزاء، والتربية والتشريع، وهي الحقائق الكبرى التي بسطها القرآن الكريم، ليستمد منها المسلمون القيم القرآنية التي وضعها الله ﷻ لتقود المسلمين بالقرآن إلى التي هي أقوم[٣].

وذكر عبد الرحمن السعدي رحمه الله بعض مقاصد القرآن، ولكنه استرسل فيها حتى صار الأمر تعدادًا لشعب الإيمان، مختلطًا ببعض الضوابط التفسيرية[٤].

ويمكن القول بأن سورة (الفاتحة) المباركة تحوي المقاصد الأساسية الكلية التي يدور حولها القرآن الكريم، ويراجع تفصيل ذلك في كتابي (الإسلام في سبع آيات).

---

(١) إرشاد الثقات (ص: ٣).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٦٥).

(٣) انظر: المحاور الخمسة للقرآن الكريم.

(٤) انظر: القواعد الحسان (ص: ٤).

المبحث الثاني: المقاصد الغائية لتنزيل القرآن الكريم

ينبغي أن يتنبه هنا إلى الفرق بين ما ذكر من المحاور الإجمالية التي يدور حولها القرآن المجيد والتي سماها حجة الإسلام الغزالي ﵀ مقاصد القرآن، وبين مقاصد القرآن الأساسية أي أهدافه الغائية التي نزل من أجلها، والتي يمكن تلخيصها في الآتي:

الأول: الرحمة بالعالمين، وللعالمين ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

الثاني: هداية الأكوان، وتربيتهم بالقرآن: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، وترى الآية مطلقة، فلم يحدد الله ﷻ المجال الذي يهدي فيه القرآن للتي هي أقوم، فقد يكون ذلك في: المجال النفسي، وقد يكون في المجال التربوي، وقد يكون في المجال الاجتماعي، وقد يكون في المجال الاقتصادي، وقد يكون في المجال السياسي، وقد يكون في مجال العلاقات العامة، وقد يكون في مجال التوازن بين مطالب الروح والجسد، والتوازن بين مطالب الدنيا والآخرة، وهكذا، وقال ربي جل مجده: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

ونستفيد تفصيل هذه الهداية من تسميات القرآن الكريم: كتسميته بالهدى ﴿هُدَى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ [لقمان:٣]، والنور ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء:١٧٤]، والشفاء ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ﴾ [الإسراء:٨٢]، والذكر ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ [الأنبياء:٥٠]، وسماه الله ﷻ حبلاً ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ [آل عمران:١٠٣]، وسماه الكتاب (الدستور المكتوب) ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [الزخرف:١-٢]، والرحمة ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾ [يونس:٥٨]، والموعظة ﴿قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [يونس:٥٧]، والبصائر ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ﴾ [الجاثية:٢٠].

وإنك لترى الرعاية الإلهية صاحبت مراحل تكون الجماعة المؤمنة مع النبي ﷺ لحظة لحظة، وخطوة خطوة.

الثالث: إعجاز الإنسان والجان؛ وإقامة الحجة عليهم ليذعنوا لداعي الإيمان؛ ولذا سَمَّى الله ﷻ هذا الكتاب الفرقان، والدليل على ذلك قول ربنا الرحمن سبحانه وتعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

ويمكن أن نستدل بقول الله ﷻ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان: ١]، فالفرقان من معانيه: التفريق بين البينة المعجزة والخرافة، وقد وصف الله ﷻ كتابه بأنه (فصل) ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ [الطارق: ١٣]، فيفصل بين الحق والباطل، والصواب والخطأ، والحق لا يمكن أن يظهر على يد نبي دون أن توجد معجزة تثبت نبوة هذا النبي، ولذا روى البخاري رحمه الله عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلاَّ أُعْطِيَ -أي من البينات المعجزة- مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ: وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(١).

الرابع: التعبد، وإشباع حاجات النفس بتلاوة القرآن: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة: ١٢١](٢)، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]، والمواعظ جمع موعظة وهي ترقيق القلوب بما خبئ في الغيوب من المآلات المخوفة التي يجب أن يحذر منها الإنسان.

فالقرآن يدل على أجمل النظم العبادية، وإنك -والله- لو تأملت في النظام التعبدي في القرآن والسنة المقبولة لرأيت إعجازًا حقيقيًّا في تنظيم الحياة الإنسانية، وتعجب من تعدد مجالات النظام التعبدي في الإسلام من الصلاة إلى الزكاة إلى الصيام إلى آداب الكلام، وترتيب أنظمة الطعام، وتنسيق طريقة المنام، وإقامة الحياة على أجمل مقام.. فما النظام التعبدي في حقيقته؟

(١) البخاري (٤٩٨١).

(٢) انظر: أسماء القرآن في البرهان في علوم القرآن ١/٢٧٣.

إنه النظام الذي يوصل البشر إلى أقصى درجات الاستمتاع بالحياة الإنسانية، وليس تقييدًا لحرية الإنسان، كما يقول الغافلون والعابثون والمدمرون لحياتهم وحياة الإنسانية

الخامس: وضع القواعد التشريعية الدستورية والقانونية التي تصنع الحياة الحقيقية للبشرية بصورة دائمة؛ فهذا المقصد داخل في الهداية إلا أننا أفردناه لأهميته، ولذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ﴾ [النساء: ١٠٥]، وقال سبحانه: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾ [الأنفال: ٢٤]، وقد حدد ربنا سبحانه الغاية من التشريعات القرآنية فأخبر أنها تصنع الحياة الحقة، كما في قوله ﷻ: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ﴾ [البقرة: ١٧٩].

السادس: تحقيق العدل (القسط) في الحياة ، وهذا المقصد داخل في: الرحمة، والهداية إلا أنه ينبغي أن يُفرد لأهميته البالغة، ولأنه معيارٌ مطلق لا يمكن أن يقيد بخلاف مقاييس كثيرة لا بد من تقييدها مثل مقياس الحرية؛ فإنه لا بد من تقييدها بالمسؤولية والمرجعية فإنها تنتهي حيث تبدأ حرية الآخرين والحفاظ على المجتمع، أما العدل فلا يقيد، ونجد الكلام عنه مبثوثًا في القرآن المجيد بصورة مدهشة، ومبدأ العدل من أكثر المبادئ انتشارًا في القرآن المجيد، ومن أجمع آياته: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾ [النساء: ١٣٥]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

مقترح مشاريع بحثية:

لعل بعض الباحثين أن يجعل بحثه لمقارنة مبدأ العدل في الكتب الثلاثة: القرآن والتوراة والإنجيل؛ فإنك تشعر بأن التوراة الحالية تنفخ في شيء منها في روح العنصرية الإسرائيلية بصورة غريبة، ومثل ذلك في الإنجيل؛ إذ تجد أن بعض النصوص تنفخ في روح العنصرية الإسرائيلية أو المسيحية بخلاف مبدأ العدل.

وكلامنا هنا ليس عن ذكر مناقب كل قوم، فهناك فرق بين العنصرية التمييزية المكروهة وبين العدل، فقد يقول لك قائل: المسلمون عنصريون؛ لأنهم يقرؤون في كتابهم: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ﴾ [آل عمران: ١١٠] فأجبه وقل له: لم يذكر الله ﷻ أن المسلمين خير أمة تفضيلاً مطلقًا بل مقيدًا بتطبيق ما يؤدي إلى العدل والإحسان في العالمين، فهنا قال: ﴿تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾، وقال بعدها قريبًا منها عن أهل الكتاب: ﴿لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣]فمدح الصالحين كما ذم الفاسدين.

ونظرًا للضخ الإعلامي للإسلامفوبيا لا تكاد تصدق أن الله ﷻ يأمر المسلمين أن يطالبوا أهل الكتاب بأن يطبقوا كتبهم، فيقول: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٨].

وهذه المقاصد الغائية من نزول القرآن الكريم أجملها الله ﷻ في قوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ **فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى** وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٥٢].

لماذا ينبغي أن نعرف محاور القرآن المجيد؟ ولماذا ينبغي أن نعرف المقاصد الغائية للقرآن العظيم؟

أعظم فائدتين لمعرفة مقاصد القرآن الكريم الكلية والغائية:

الفائدة الأولى: فهم النصوص الجزئية في القرآن في ضوء هذه المقاصد الكلية.

الفائدة الثانية: الرجوع إليها عند الاختلاف في فهم آية، فهي المحكمات والكليات التي تُحاكَم إليها الجزئيات.

المبحث الثالث: أهم الكتب التي تكلمت عن المقاصد القرآنية

من أهم الكتب التي تكلمت عن المقاصد القرآنية:

كتب المقاصد الشرعية تصلح أن تكون مراجعَ في معرفة مقاصد التنزيل القرآني؛ إذ الشريعة تنتمي في استنباطاتها إلى القرآن الكريم، ومن أهم الكتب التي ظهر فيها محاولة حصر مقاصد التنزيل القرآني:

١) "جواهر القرآن" لأبي حامد مُحَمَّد بن مُحَمَّد الغزالي الطوسي (ت ٥٠٥هـ).

٢) الكتب التي ترصد المعرفة القرآنية والسلوكية، مثل: مدراج السالكين لابن القيم (ت٧٥١هـ)، فحقيقته تلخيص لمقاصد الفاتحة ومقاصد القرآن الكريم.

٣) الموافقات لأبي إسحاق الشاطبي (٧٩٤هـ) فهو في مقاصد الشريعة أي في مقاصد القرآن، ومن تأمل كتاب المقاصد فيه رأى ذلك بينًا.

٤) بعض كتب التفسير أقامها أصحابها على أساس الدوران حول مقاصد القرآن مثل كتاب: مفاتح الغيب أو التفسير الكبير للرازي، فما أكثر ما تجده يقول مثلاً: والأصل أن القرآن يهدي الإنسان لمعرفة الحق لذاته، ومعرفة الخير لغيره أي لغيره من الخلق، وقد أفاد فضيلة العالم الرباني الهمام: مُحَمَّد عبد الله دراز ﵀ من ذلك.

٥) وصدر مؤخرًا كتاب: المدخل إلى مقاصد القرآن الكريم للدكتور عبد الكريم حامدي.

المبحث الرابع: بين تدبر القرآن المجيد، ومقاصده الكلية والجزئية، وأنواره الهادية في الحياة، وبين حُجُبِ النقل التاريخي:

عندما تقرأ بعض كتب التفسير تلمس غلوًّا وإيغالاً غير مقبولٍ في النقل الأسطوري يمر كثيرًا عبر الأقاصيص الإسرائيلية، وأحيانًا خارجها، وذلك مما يشوش جمال المعاني القرآنية، وإنك لتعجب من كثرته في بعض كتب التفسير، وله دوره في حجب الفكر عن التدبر في موضع العبرة، والتفكر في إحكام البناء القرآني، والبحث عن الحكم والأسرار في الآيات والكلمات

وما زلت والله أعجب من الشعور الجانبي الذي يعتري المرء عندما يقرأ كلام الجرجاني ﷺ عن نظم القرآن.. أتعرف ما الشعور الجانبي؟

يُقذَف في رُوعِ المرء –أي في نفسه– أن الجرجاني هو الذي لفت الأذهان إلى إحكام القرآن مما سماه (النَظْم)، وعلى الفضل العظيم الذي حباه الله عبده عبدَ القاهر الجرجاني إلا أنك تجد القرآن صريحًا منذ نزل يدلك على أنه حكيم محكَم، وذلك يعني إعجاز نظمه، كما في قول ربنا تعالى ذكره: ﴿ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [يونس: ١]، وفي قوله جل ذكره: ﴿الٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [لقمان: ١، ٢]، وفي قوله جل مجده: ﴿يٰسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [يس: ١، ٢].

وأترك لك –أيدك الله– التلذذ باستخراج الفرق بين التعبيرات الدقيقة في السور الثلاث.. فهذا في وصف القرآن بالحكمة، فتعال لترى وصف القرآن بالإحكام الذي عبر عنه الجرجاني ﷺ بالنَظْم لتسمع ربك ﷻ يقول: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

إن اللهث وراء تفاصيل القصص التي لم ترد في الكتاب ولا في السنة المقبولة يُكَوِّنُ حُجُبًا غليظة بينك وبين مقاصد القرآن، وأنواره الهادية في الحياة، وأسراره البانية للنفس والمجتمعات، وأزهاره التي تعيد الاطمئنان والرضا للقلوب الذابلات

والحال كما قال العلامة الحاذقمحمد رشيد رضا ﷺ: "وَإِذَا وَرَدَ فِي كُتُبِ أَهْلِ الْمِلَلِ أَوِ الْمُؤَرِّخِينَ مَا يُخَالِفُ بَعْضَ هَذِهِ الْقِصَصِ، فَعَلَيْنَا أَنْ نَجْزِمَ بِأَنَّ مَا أَوْحَاهُ اللهُ ﷻ إِلَى نَبِيِّهِ، وَنُقِلَ إِلَيْنَا بِالتَّوَاتُرِ الصَّحِيحِ هُوَ الْحَقُّ، وَخَبَرُهُ هُوَ الصَّادِقُ، وَمَا خَالَفَهُ هُوَ الْبَاطِلُ، وَنَاقِلُهُ مُخْطِئٌ أَوْ كَاذِبٌ، فَلَا نَعُدُّهُ شُبْهَةً عَلَى الْقُرْآنِ، وَلَا نُكَلِّفُ أَنْفُسَنَا الْجَوَابَ عَنْهُ، فَإِنَّ حَالَ التَّارِيخِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ كَانَتْ مُشْتَبِهَةَ الْأَعْلَامِ حَالِكَةَ الظَّلَامِ، فَلَا رِوَايَةَ يُوثَقُ بِهَا لِلْمَعْرِفَةِ التَّامَّةِ بِسِيرَةِ رِجَالِ سَنَدِهَا، وَلَا تَوَاتُرَ يُعْتَدُّ بِهِ بِالْأَوْلَى، وَإِنَّمَا انْتَقَلَ الْعَالَمُ بَعْدَ نُزُولِ الْقُرْآنِ مَنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ، فَكَانَ بِدَايَةَ تَارِيخٍ جَدِيدٍ لِلْبَشَرِ، كَانَ يَجِبُ عَلَيْهِمْ – لَوْ أَنْصَفُوا – أَنْ يُؤَرِّخُوا بِهِ أَجْمَعِينَ"[(١)].

(١) تفسير المنار (٢/٣٧٤).

فمما تعجب منه أن يحاول بعضهم أن يتكلف في التوفيق بين ما ورد في التوراة الموجودة من أن التي ربت موسى عليه السلام هي ابنت فرعون، وما ورد في القرآن من أنها امرأة فرعون، فإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل، فالقرآن هو المهيمن.

بل إنك عند التأمل تجد الوصف القرآني لإحكام القرآن أشمل من التعريف الذي وضعه الجرجاني رحمه الله للنَظْم، فإنه قد قال معرِّفًا مراده: " واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علمُ النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نُهِجت، فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك، فلا تخل بشيء منها. وذلك أنا لا نعلم شيئًا يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه"[1]، فقارن هذا مع التعريف الذي تراه في سورة هود عليه السلام للكتاب: فهو كتاب أحكمت آياته، فهي محكمةٌ مترابطة، ثم فصلت بناء على هذا الإحكام، وذاك يعني ضرورة مراعاة المقاصد العامة للآيات في جُمَلِها التي تكونت منها، ثم مراعاة مقاصد الآيات التي كونت محورًا محددًا في السورة، ثم مراعاة مقاصد الآيات التي كونت المحاور المختلفة ضمن السورة الواحدة، ثم مراعاة مقاصد السور التي كونت قسمًا من القرآن المجيد، وذلك بحمد الله المنهج الذي أسير عليه في مشروع "بصائر المعرفة القرآنية"، وهو التفسير الذي صدر منه سورة الفاتحة بعنوان (الإسلام في سبع آيات)، وسورة النساء بعنوان: بث الحياة الإنسانية.

(١) دلائل الإعجاز (ص: ٨١).

أسئلة تقويمية:

س١: عدِّد علوم القرآن التي تؤدي إلى فهم الخطاب القرآني.

س٢: ما أسباب صعوبة فهمِ المراد من الكلام؟

س٣: اذكر مقاصد القرآن الكريم، ومحاوره الكلية عند: الغزالي، وابن العربي، والدهلوي.

س٤: اذكر مقاصد القرآن الكريم، ومحاوره الكلية عند: الشوكاني، والنورسي، وابن عاشور.

س٥: ما المقاصد الغائية لتنزيل القرآن الكريم؟

س٦: ما فائدة معرفة مقاصد القرآن الكريم الكلية والغائية؟

س٧: اذكر أهم الكتب التي تكلمت عن المقاصد القرآنية.